تفسير القاسمي

المسمى

محاسن التأويل

تأليف علامة الشام

محمد جمال الدين القاسمي

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقمه وخرّج آياته وأحاديثه ، وعلّق عليه

(خادم الكتاب والسنة)

محمد فؤاد عبد الباقي

« الطبعة الأولى »

جميع الحقوق محفوظة

[١٣٧٦هـ — ١٩٥٧م]

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة فاتحة الكتاب

فاتحة الشيء : أوله وابتداؤه . ولمّا افتُتِح التنزيل الكريم بها ، إمّا بتوقيفٍ من النبيّ ﷺ ، أو باجتهادٍ من الصحابة ـ كما حكى القولين القاضى الباقلانىّ فى ترتيب التنزيل ـ . سُمِّيت بذلك .

قال السيد الجرجانىّ : فاتحة الكتاب صارت علماً بالغلبة لسورة الحمد ، وقد يطلق عليها « الفاتحة » وحدها ، فإما أن يكون علماً آخر بالغلبة أيضاً ، لكون اللام لازمة ، وإما أن يكون اختصاراً ، واللام كالعوض عن الإضافة إلى الكتاب ، مع لمح الوصفية الأصلية .

وقال ابن جرير : سميت « فاتحة الكتاب » : لأنها يُفتتح بكتابتها المصاحف ، ويقرأ بها فى الصلوات . فهى فواتح لما يتلوها من سور القرآن فى الكتابة والقراءة . وتسمّى « أم القرآن » : لتقدمها على سائر سور القرآن غيرها ، وتأخُّر ما سواها خلفها فى القراءة والكتابة تقدُّمَ الأمّ والأصل؛ أو لاشتمالها على مافيه من الثناء على الله بما هو أهله ، والتعبّد بأمره ونهيه ، وبيان وعده ووعيده ؛ أو على جملة معانيه من الحكم النظرية ، والأحكام العملية التى هى سلوك الصراط المستقيم ، والاطلاع على معارج السعداء ، ومنازل الأشقياء . والعرب تسمى كلَّ أمرٍ جامعٍ أموراً ، وكلَّ مقدمٍ له توابع تتبعه « أُمًّا » ـ فتقول للجلدة التى تجمع الدماغ « أمّ الرأس » وتسمى لواء الجيش ورايتهم التى يجتمعون تحتها « أما »

وتسمى « السبع المثانى » ـ جمع مثنى كمَفْعَل اسم مكان ، أو مثنّى بالتشديد من التثنية

على غير قياس ـ لأنها سبع آيات تثنى فى الصلاة أى تكرر فيها .

والأكثرون على أن الفاتحة مكية ، وأنها سبع آيات .

وأصل معنى « السورة » لغةً : المنزلة من منازل الارتفاع . ومن ذلك سور المدينة للحائط الذى يحويها ، وذلك لارتفاعه على ما يحويه . ومنه قول نابغة بنى ذبيان :

ألم ترَ أنَّ اللهَ أعطاك سُورةً ترَى كلَّ مَلْكٍ دونها يَتَذَبْذَبُ(١)

أى منزلةً من منازل الشرف التى قصرت عنها منازل الملوك .

وأما « الآية » فإمَّا بمعنى : العلامة ـ لأنها علامة يُعرف بها تمام ما قبلها وابتداؤها ، كالآية التى تكون دلالة على الشىء يستدلّ به عليه ـ وإمَّا بمعنى : القصَّة ـ كما قال كعب ابن زهير :

ألا أبْلِغا هـذا المعرِّضَ آيةً : أيقظانَ قال القول ، إذ قال ، أم حَلَمْ

أى رسالة منى ، وخبراً عنى ـ فيكون معنى الآيات « القصص » قصة تتلو قصة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ)

قال الإمام ابن جرير : إن الله ، تعالى ذكره وتقدست أسماؤه ، أدَّب نبيه محمداً ﷺ : بتعليمه تقديم ذكر أسمائه الحسنى أمام جميع أفعاله ، وتقدم إليه فى وصفه بها قبل جميع مهماته ، وجعل ـ ما أدَّبه به من ذلك ، وعلَّمه إياه ـ منه لجميع خلقه : سنّةً يستنّون بها ، وسبيلًا يتبعونه عليها ، فبه افتتاح أوائل منطقهم ، وصدور رسائلهم وكتبهم وحاجاتهم ، حتى أغنت دلالة ماظهر ، من قول القائل : بسم الله ، على مابطن من مراده الذى هو محذوف .

(١) قال السيد محمود محمد شاكر فى التعليق على تفسير ابن جرير ما يأتى :

يتذبذب : يضطرب ويحار . والذبذبة : ترددالشىء المعلق فى الهواء يمنة ويسرة . يقول : أعطاك الله من المنزلة الرفيعة ، ما لو رامه ملك وتسامى إليه ، بقى معلقا دونها حائرا يضطرب ويتردد ، لا يطيق أن يبلغها .

وذلك أن الباء مقتضية فعلًا يكون لها جالباً ؛ فإذا كان محذوفاً يقدَّر بما جُعلت التسمية مبدأً له . والاسم هنا بمعنى التسمية ـ كالكلام بمعنى التكليم ، والعطاء بمعنى الإعطاء ـ والمعنى : أقرأ بتسمية الله وذكره ، وأفتتح القراءة بتسمية الله بأسمائه الحسنى وصفاته العُلَى. و « الله » علم على ذاته ، تعالى وتقدس . قال ابن عباس : هو الذى يألهه كلّ شىء ويعبده وأصله « إلاه » بمعنى مألوه أى معبود ؛ فلما أدخلت عليه الألف واللام حذفت الهمزة تخفيفاً لكثرته فى الكلام ؛ وبعد الإدغام فخّمت تعظيماً ـ هذا تحقيق اللغويين .

و « الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ » قال الجوهرىّ : هما اسمان مشتقان من الرحمة ، ونظيرهما فى اللغة « نديم وندمان » وهما بمعنى . ويجوز تكرير الاسمين إذا اختلف اشتقاقهما على جهة التوكيد ، كما يقال : جادّ مجدّ إلاّ أن « الرحمن » اسم مخصص بالله لا يجوز أن يسمى به غيره . ألا ترى أنه قال : « قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ »[1] فعادل به الاسم الذى لايشركه فيه غيره . اهـ .

وقد ناقش فى كون « الرحمن الرحيم » بمعنى واحد ، العلّامةُ الشيخ محمد عبده المصرىّ فى بعض مباحثه التفسيرية قائلاً : إن ذلك غفلة نسأل الله أن يسامح صاحبها ـ ثم قال : ـ وأنا لا أجيز لمسلمٍ أن يقول ، فى نفسه أو بلسانه : إن فى القرآن كلمة جاءت لتأكيد غيرها ولا معنى لها فى نفسها ، بل ليس فى القرآن حرف جاء لغير معنى مقصود . والجمهور : على أن معنى الرحمن المنعم بجلائل النعم ؛ ومعنى الرحيم المنعم بدقائقها . وبعضهم يقول : إن الرحمن هو المنعم بنعم عامة تشمل الكافرين مع غيرهم ؛ والرحيم المنعم بالنعم الخاصة بالمؤمنين. وكل هذا تحكم باللغة مبنىّ على أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى . ولكن الزيادة تدل على الوصف مطلقاً ؛ فصيغة « الرحمن » تدل على كثرة الإحسان الذى يعطيه ، سواء كان جليلاً

(١) [١٧ / الإسراء / ١١٠] ونصها : قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ، أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ، وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا .

أو دقيقاً . وأما كون أفراد الإحسان التي يدل عليها اللفظ الأكثر حروفاً أعظم من أفراد الإحسان التي يدل عليها اللفظ الأقل حروفاً ، فهو غير معنيّ ولا مراد ، وقد قارب من قال : إن معنى «الرحمن» المحسن بالإحسان العام . ولكنه أخطأ في تخصيص مدلول الرحيم بالمؤمنين ؛ ولعل الذي حمل من قال : إن الثاني مؤكد للأول ـ على قوله هذا ـ هو عدم الاقتناع بما قالوه من التفرقة ، مع عدم التفطّن لما هو أحسن منه . ثم قال : والذي أقول : إن لفظ « رحمن » وصفٌ فعلىٌ فيه معنى المبالغة ـ كفعّال ـ ويدل في استعمال اللغة على الصفات العارضة ـ كعطشان وغرثان وغضبان ـ وأما لفظ « رحيم » فإنه يدل في الاستعمال على المعاني الثابتة كالأخلاق والسجايا في الناس ـ كعليم وحكيم وحليم وجميل ـ والقرآن لا يخرج عن الأسلوب العربيّ البليغ في الحكاية عن صفات الله عز وجل التي تعلو عن مماثله صفات المخلوقين ؛ فلفظ « الرحمن » يدل على من تصدر عنه آثار الرحمة بالفعل وهي إفاضة النعم والإحسان ؛ ولفظ « الرحيم » يدل على منشأ هذه الرحمة والإحسان ، وعلى أنها من الصفات الثابتة الواجبة ، وبهذا المعنى لا يستغني بأحد الوصفين عن الآخر ، ولا يكون الثاني مؤكّداً للأول . فإذا سمع العربيّ وصف الله جلّ ثناؤه بـ « الرحمن » ، وفهم منه أنه المفيض للنعم فعلا ، لا يعتقد منه أن الرحمة من الصفات الواجبة له دائماً ـ لأن الفعل قد ينقطع إذا كان عارضاً لم ينشأ عن صفة لازمة ثابتة ـ فعندما يسمع لفظ « الرحيم » يكمل اعتقاده على الوجه الذي يليق بالله تعالى ويرضيه سبحانه . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

« الْحَمْدُ لِلَّهِ » أي الثناء بالجميل ، والمدح بالكمال ثابت لله دون سائر ما يعبد من دونه ، ودون كل ما برأ من خلقه . واللام في « الحمد » للاستغراق أي استغراق جميع أجناس الحمد وثبوتها لله تعالى تعظيماً وتمجيداً ـ كما في الحديث : « اللهم لك الحمد كله ولك الملك كله »[1] .

(١) لم أعثر على هذا الحديث في شيء من أصول السُّنة .

قال الإمام ابن القيّم فى « طريق الهجرتين » : الملك والحمد فى حقه تعالى متلازمان . فكل ما شمله ملكه وقدرته شمله حمده ، فهو محمود فى ملكه ، وله الملك والقدرة مع حمده . فكما يستحيل خروج شىء من الموجودات عن ملكه وقدرته ، يستحيل خروجها عن حمده وحكمته . ولهذا يحمد سبحانه نفسه عند خلقه وأمرِه لينبّه عباده على أن مصدر خلقه وأمره عن حمده . فهو محمود على كل ما خلقه وأمر به حمد شكر وعبودية وحمد ثناء ومدح ، ويجمعهما التبارك ، « فتبارك الله » يشمل ذلك كله . ولهذا ذكر هذه الكلمة عقيب قوله: « أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ »(١) . فالحمد أوسع الصفات وأعم المدائح . والطرق إلى العلم به فى غاية الكثرة، والسبيل إلى اعتباره فى ذرات العالم وجزئياته، وتفاصيل الأمر والنهى واسعة جدا ، لأن جميع أسمائه ، تبارك وتعالى ، حمدٌ ، وصفاته حمدٌ ، وأفعاله حمد ، وأحكامه حمد ، وعدله حمد ، وانتقامه من أعدائه حمد ، وفضله فى إحسانه إلى أوليائه حمد ، والخلق والأمر إنما قام بحمده ، ووجد بحمده ، وظهر بحمده ، وكان الغاية هى حمده ، فحمده سبب ذلك وغايته ومظهره وحامله . فحمده روح كل شىء ، وقيام كل شىء بحمده ، وسريان حمده فى الموجودات ، وظهورُ آثاره فيه أمرٌ مشهود بالأبصار والبصائر . ـ ثم قال ـ : وبالجملة فكل صفة علياء ، واسم حسن ، وثناء جميل ، وكل حمدٍ ومدحٍ وتسبيحٍ وتنزيهٍ وتقديسٍ وجلالٍ وإكرامٍ فهو لله عزّ وجلّ على أكمل الوجوه وأتمها وأدومها ؛ وجميع ما يوصف به ، ويذكر به ، ويخبر عنه به فهو محامد له وثناء وتسبيح وتقديس ، فسبحانه وبحمده لا يُحصِى أحدٌ من خلقه ثناءً عليه اهـ .

« رَبِّ الْعَالَمِينَ » الرب يطلق على السيد المطاع وعلى المصلح وعلى المالك . ـ تقول : رَبَّهُ يَرُبُّهُ فهو ربّ كما تقول : نمّ عليه ينمّ فهو نمّ ـ فهو صفة مشبهة، ويجوز أن يكون

(١) [٧ / الأعراف/ ٥٤] ونصها: إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

مصدراً بمعنى التربيـة وهى : تبليغ الشىء إلى كماله شيئاً فشيئاً . وصف به الفاعل مبالغة كما وصف بالعدل . والرب ـ باللام ـ لا يقال إلا لله عزّ وجلّ . وهو فى غيره على التقييد بالإضافة ـ كربّ الدار ـ ومنه قوله تعالى: «ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ»(١) «إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ»(٢).

و « الْعَالَمِينَ » جمع عالم وهو : الخلق كلّه وكل صنف منه . وإيثار صيغة الجمع لبيان شمول ربوبيته تعالى لجميع الأجناس . والتعريف لاستغراق أفراد كل منها بأسرها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ)

إيرادها عقد وصف الربوبية من باب قرن الترغيب بالترهيب الذى هو أسلوب التنزيل الحكيم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)

قرأ عاصم والكسائىّ بإثبات ألف « مالك » والباقون بحذفها . قال الزمخشرىّ : ورجحت قراءة « ملك » لأنه قراءة أهل الحرمين ، وهم أولى الناس بأن يقرأوا القرآن غضاً طرياً كما أنزل ، وقراؤهم الأعلون رواية وفصاحة . ولقوله تعالى : « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ »(٣)

(١) [١٢ / يوسف / ٥٠] ونصها : وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ ، فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ، إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ .

(٢) [١٢ / يوسف / ٢٣] ونصها : وَرَاوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ، قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ .

(٣) [٤٠ / غافر / ١٦] ونصها : يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ ، لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ، لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ، لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ .

فقد وصف ذاته بأنه الملك يوم القيامة . والقرآن يتعاضد بعضه ببعض ، وتتناسب معانيه فى المواد . وثمة مرجحات أخرى .

وقال بعضهم : إن قراءة « مالك » أبلغ ، لأن الملك هوالذى يدبر أعمال رعيته العامة ، ولا تصرّف له بشىء من شؤونهم الخاصة . وتظهر التفرقة فى عبدمملوك فى مملكة لهاسلطان ، فلا ريب أن مالكه هو الذى يتولى جميع شؤونه دون سلطانه . ومن وجوه تفضيلها : إنها تزيد بحرف ، ولقارىء القرآن بكل[1] حرف عشر حسنات ـ كما رواه الترمذىّ عن ابن مسعود بإسناد صحيح ـ وكلاهما صحيح متواتر فى السبع .

و « الدِّين » الحساب والمجازاة بالأعمال . ومنه : « كماتدين تدان » أى : مالك أمور العالمين كلها فى يوم الدين . وتخصيصه بالإضافة إمَّا لتعظيمه وتهويله ، أو لبيان تفرده تعالى بإجراء الأمر وفصل القضاء فيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

قال الطبرىّ : أى لك ، اللهم ، نخشع ونذلّ ونستكين . إقراراً لك بالربوبية لا لغيرك ـ قال ـ والعبودية عند جميع العرب أصلها الذلة ، وأنها تسمِّى الطريقَ المذلل الذى قد وطئته الأقدام، وذلّلته السابلة « معبَّدًا » ومنه قيل للبعيرالمذلل بالركوب فى الحوائج « معبّد » ومنه سمى العبد « عبدا » لذلّته لمولاه انتهى .

وفيه إعلام بما صدع به الإسلام من تحرير الأنفس لله تعالى وتخليصها لعبادته وحده . أعنى : أن لا يشرك شيئاً ما معه ، لا فى محبته كمحبته ، ولا فى خوفه ، ولا فى رجائه ، ولا

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٢ ـ كتاب ثواب القرآن ، ١٦ ـ باب ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ماله من الأجر .

عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها . لاأقول: الم حرف ، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف».

فى التوكل عليه ، ولا فى العمل له ، ولا فى النذر له ، ولا فى الخضوع له ، ولا فى التذلل والتعظيم والسجود والتقرب ، فإن كل ذلك إنما يستحقه فاطر الأرض والسموات وحده . وذلك أن لفظ العبادة يتضمن كمال الذل بكمال الحب . فلا بد أن يكون العابد محبًّا للإله المعبود كمال الحب ؛ ولا بد أن يكون ذليلاً له كمال الذل ، وهما لا يصلحان إلا لله وحده . فهو الإله المستحق للعبادة ، الذى لا يستحقها إلاَّ هو ، وهى كمال الحب والذل والإجلال والتوكل والدعاء بما لا يقدر عليه إلاَّ هو ، تعالى . وقد أشار لذلك تقديم المفعول ، فإن فيه تنبيهاً على ما يجب للعبد من تخصيصه ربَّه بالعبادة ، وإسلامه وجهه لله وحده ، لا كما كان عليه المشركون الذين ظهر النبىّ ﷺ عليهم ، فقد كانوا متفرقين فى عبادتهم ، متشاكسين فى وجهتهم : منهم من يعبد الشمس والقمر ، ومنهم من يعبد الملائكة ، ومنهم من يعبد الأصنام ، ومنهم من يعبد الأحبار والرهبان ، ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار ... إلى غير ذلك ، كما بينه القرآن الكريم فى قوله تعالى : « وَمِنْ ءَايَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ »(١) الآية . وفى قوله تعالى : « وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ؟ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ »(٢) . وفى قوله تعالى : « وَإِذْ قَالَ اللهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ ؟ قَالَ سُبْحَانَكَ »(٣) الآية . وقوله تعالى : « وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ

(١) [٤١ / فصلت / ٣٧] ونصها : وَمِنْ ءَايَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ، لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ .

(٢) [٣٤ / سبأ / ٤٠و٤١] ونصها : وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ، أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ .

(٣) [٥ / المائدة / ١١٦] ونصها : وَإِذْ قَالَ اللهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ =

تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا »[١] الآية . وفى قوله تعالى : « أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ »[٢] . وحديث[٣] أبى واقد الليثىّ قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر ، وللمشركين سدرة يعكفون عندها ، وينوطون بها أسلحتهم يقال لها « ذات أنواط » فمررنا بسدرة فقلنا : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال رسول ﷺ : « الله أكبر . إنها السنن ، قلتم ـ والذى نفسى بيده ـ كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ . قَالَ : إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ـ إلى قوله ـ وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ »[٤] رواه الترمذىّ وصححه.

= لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ ، قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَا أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ .

(١) [٣ / آل عمران / ٨٠] ونصها : وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ، أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ .

(٢) [٥٣ / النجم / ١٩و٢٠] ونصهما : أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى : ٣١ ـ كتاب الفتن ، ١٨ ـ باب ماجاء لتركبن سنن من كان قبلكم . وهذا نصه :

عن أبى واقد الليثىّ أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى خيبر مر بشجرة للمشركين يقال لها ذات أنواط، يعلقون عليها أسلحتهم . فقالوا : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال النبىّ ﷺ « سبحان الله! هذا كما قال قوم موسى : اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ . والذى نفسى بيده لتركبن سنة من كان قبلكم » .

(٤) [٧ / الأعراف / ١٣٨ ـ ١٤٠] ونصها : وَجَاوَزْنَا بِبَنِى إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ ، قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ =

وأما عبادتهم للأحبار والرهبان ففى قوله تعالى : « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ »(١) فروى الإمام أحمد والترمذىّ(٢) عن عدىّ بن حاتم أنه سمع النبىّ ﷺ يقرأ هذه الآية « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ » الآية فقلت له : إنا لسنا نعبدهم ، قال : « أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَ ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتُحِلُّونَهُ ؟ » فقلت : بلى قال : « فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ » .

فالعبادة أنواع وأصناف ، ولا يتم الإيمان إلاّ بتوحيدها كلها لله سبحانه . وقد بينت السنة أن الدعاء هو العبادة. أى ركنها المهم الأعظم. وأصله من التنزيل الكريم قوله تعالى: « وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى »(٣) فسماه عبادة .

= ءَالِهَةٌ ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ .

(١) [٩ / التوبة / ٣١] ونصها : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٩ ـ سورة التوبة ، ١٠ ـ حدثنا الحسين بن مرثد .

عن عدىّ بن حاتم قال: أتيت النبىّ ﷺ وفى عنقى صليب من ذهب . فقال: «ياعدىّ، اطرح عنك هـذا الوثن » . وسمعته يقرأ فى سورة براءة : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ ، قال « أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم . ولـكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه ، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه » .

(٣) [٤٠ / غافر / ٦٠] ونصها : وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ .

وفى الخبر(١) : « الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل » .

قال شمس الدين بن القيم : ولهذا كان العبد مأموراً فى كل صلاة أن يقول : « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » والشيطان يأمر بالشرك ، والنفس تطيعه فى ذلك ، فلا تزال النفس تلتفت إلى غير الله ، إما خوفا منه ، أو رجاءً له ، فلا يزال العبد مفتقراً إلى تخليص توحيده من شوائب الشرك ؛ ولذا أخبر سبحانه عن المشركين أنهم ما قدروه حق قدره فى ثلاث مواضع من كتابه ؛ وكيف يقدره حق قدره من جعل له عدلاً ونداً يحبه ، ويخافه ، ويرجوه ، يذل ويخضع له ، ويهرب من سخطه ، ويؤثر مرضاته ، والمؤثر لا يرضى بإيثاره انتهى .

(فائدة) قال بعض السلف : الفاتحة سرّ القرآن ، وسرّها هذه الكلمة « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » : فالأول تبرّؤ من الشرك ، والثانى تبرّؤ من الحول والقوة ، والتفويض إلى الله عزّ وجلّ . وهذا المعنى فى غير آية من القرآن كما قال تعالى : « فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ (٢) ، قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِ ، وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا(٣) ، رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا »(٤) .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند ج ٤ ص ٤٠٣ (طبعة الحلبىّ) ونصه :

عن أبى موسى الأشعرىّ قال : خطبنا رسول الله ﷺ ذات ليلة فقال : « أيها الناس . اتقوا هـذا الشرك ، فإنه أخفى من دبيب النمل » فقال له من شاء أن يقول : وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله ؟ قال « قولوا : اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلم » .

(٢) [١١ / هود / ١٢٣] ونصها : وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .

(٣) [٦٧ / الملك / ٢٩] ونصها : قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ، فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُبِينٍ .

(٤) [٧٣ / المزمل / ٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)

أى ألهمنا الطريق الهادى ، وأرشدنا إليه ، ووفقنا له .

قال الإمام الراغب فى تفسيره : « الهداية دلالة بلطف . ومنه الهدية ، وهوادى الوحش وهى متقدّماتها لكونها هادية لسائرها . وخص ما كان دلالة بفعلت نحو : هديته الطريق ، وما كان من الإعطاء بأفعلت نحو أهديت الهدية ، ولما يصور العروس على وجهين: قيل فيه : هديت وأهديت . فإن قيل : كيف جعلت الهدى دلالة بلطف وقد قال تعالى : «فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ»[1] وقال تعالى: « كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ»[2] قيل : إن ذلك حسب استعمالهم اللفظ على التهكم كما قال:

وخيلٍ قد دَلَفْتُ لهَا بِخَيْلٍ ... تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ ![3]

والهداية هى الإرشاد إلى الخيرات قولاً وفعلاً ، وهى من الله تعالى على منازل بعضها يترتب على بعض ، لا يصح حصول الثانى إلاّ بعد الأول ، ولا الثالث إلاّ بعد الثانى . فأول المنازل إعطاؤه العبد القوى التى بها يهتدى إلى مصالحه إما تسخيراً وإما طوعاً ـ كالمشاعر الخمسة والقوة الفكرية ، وبعض ذلك قد أعطاه الحيوانات ، وبعض خصّ به الإنسان ، وعلى ذلك دلّ قوله تعالى : « أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ »[4] وقوله تعالى : « الَّذِي قَدَّرَ

(١) [٣٧ / الصافات / ٢٣] ونصها: مِنْ دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ .

(٢) [٢٢ / الحج / ٤] .

(٣) استشهد به الزمخشرىّ فى الكشاف. وقال شارح الشواهد :

أصل التحية أن يدعى للرجل بالحياة . وضرب وجيع أى موجع . أى رب جيش قد مشيت إليه بجيش . وتحية بينهم الضرب بالسيف لا القول باللسان . والعرب تقول : تحيتك الضرب وعقابك السيف . أى بدلا لك من التحية .

(٤) [٢٠ / طه / ٥٠] ونصها : قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ .

فَهَدَىٰ »[١] وهذه الهداية إما تسخير وإما تعليم ، وإلى نحوه أشار بقوله تعالى : « وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ »[٢] وقوله تعالى « بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا »[٣] وقال فى الإنسان، بما أعطاه من العقل ، وعرفه من الرشد : « إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ »[٤] وقال : « وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ »[٥] وقال فى ثمود: « فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ »[٦] وثانيهما الهداية بالدعاء وبعثة الأنبياء عليهم السلام . وإياها عنى بقوله تعالى : « وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا »[٧] . وبقوله : « وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ »[٨] وهذه الهداية تنسب تارةً إلى الله تعالى عز وجل ، وتارة إلى النبىّ عليه السلام ، وتارة إلى القرآن . قال الله تعالى : « إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ »[٩]

(١) [٨٧ / الأعلى / ٣] .

(٢) [١٦ / النحل / ٦٨] ونصها : وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ .

(٣) [٩٩ / الزلزلة / ٥] .

(٤) [٧٦ / الإنسان / ٣] ونصها : إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا.

(٥) [٩٠ / البلد / ١٠] .

(٦) [٤١ / فصلت / ١٧] ونصها : وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ .

(٧) [٣٢/ السجدة/ ٢٤] ونصها : وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ .

(٨) [١٣ / الرعد / ٧] ونصها: وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ .

(٩) [١٧/ الإسراء/ ٩] ونصها : إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا .

وثالثها هداية يوليها صالحى عباده بما اكتسبوه من الخيرات ، وهى الهداية المذكورة فى قوله عز وجل : « وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ ، وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ »(١) . وقوله : « أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ ، فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ »(٢) وقوله : « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا »(٣) . وهذه الهداية هى المعنيّة بقوله : « وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ »(٤) . ويصح أن ننسب هذه الهداية إلى الله عز وجل فيقال : هو آثرهم بها من حيث أنه هو السبب فى وصولهم إليها . ويصح أن يقال : اكتسبوها من حيث أنهم توصلوا إليها باجتهادهم . فمن قصد سلطاناً مسترفدا فأعطاه ، يصح أن يقال : إن السلطان خوّله . ويصح أن يقال : فلان اكتسب بسعيه ، ولانطواء ذلك على الأمرين ، قال تعالى : « وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ »(٥) وقال: « إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ »(٦) . فنبه أن ذلك بجهدهم وبفضله جميعاً .

وهذه الهداية يصح أن يقال : هى مباحة للعقلاء كلهم ، ويصح أن يقال : هى محظورة

(١) [٢٢ / الحج / ٢٤] .

(٢) [٦ / الأنعام / ٩٠] ونصها : أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ ، فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ، قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ .

(٣) [٢٩ / العنكبوت / ٦٩] ونصها : وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ .

(٤) [٥٧ / الحديد / ٢٨] ونصها : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٥) [٤٧ / محمد / ١٧] .

(٦) [١٠ / يونس / ٩] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ، تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ .

إلّا على أوليائه ، لما كان فى إمكان جميع العقلاء أن يترشحوا لتناولها . ومن ذلك قيل : إنها لا يسهل تناولها قبل أن يتشكل الإنسان بشكل مخصوص ، بتقديم عبادات . وقد قال بعض المحققين : الهدى من الله كثير ، ولا يبصره إلّا البصير ، ولا يعمل به إلّا اليسير . ألا ترى إلى نجوم السماء ما أكثرها ولا يهتدى بها إلا العلماء . وقال بعض الأولياء : إن مثل هداية الله مع الناس كمثل سيل مرّ على قِلَات[١] وغدران[٢] ، فيتناول كلُّ قَلْتٍ منها بقدر سعته ـ ثم تلا قوله ـ « أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا »[٣] وقال بعضهم : هى كمطرٍ أتى على أرضين فينتفع كل أرض بقدر ترشيحها للانتفاع به .

(والمنزلة الرابعة) من الهداية التمكين من مجاورته فى دار الخلد ، وإياها عنى الله بقوله « وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا »[٤] . فإذا ثبت ذلك فمن الهداية مالا ينفى عن أحد بوجه . ومنها ما ينفى

---

(١) فى المصباح : القَلْت نقرة فى الجبل يستنقع فيها الماء . والجمع قِلات ، مثل سهم وسهام .

(٢) الغدران جمع غدير ، وهو النهر .

(٣) [١٣ / الرعد / ١٧] ونصها : أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ .

(٤) [٧ / الأعراف / ٤٣] ونصها : وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ، وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ، لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ، وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

عن بعض ويثبت لبعض ، ومن هذا الوجه قال تعالى لنبيه ﷺ : « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ »(١) . وقال : « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ »(٢) . وقال: « وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ »(٣). فإنَّه عنى الهداية ـ التي هي التوفيق وإدخال الجنة ـ دون التي هي الدعاء لقوله تعالى : « وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »(٤) . وقال في الأنبياء : « وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا »(٥) . فقوله : « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » فسّر على وجوه بحسب أنظار مختلفة إلى الوجوه المذكورة : (الأول) أنه عنى الهداية العامة ، وأمر أن ندعو بذلك ـ وإن كان هو قد فعله لا محالة ـ ليزيدنا ثواباً بالدعاء ، كما أمرنا أن نقول : اللهم صلِّ على محمد . (الثاني) قيل : وفقنا لطريقة الشرع . (الثالث) احرسنا عن استغواء الغواة واستهواء الشهوات ، واعصمنا من الشبهات .

---

(١) [٢٨ / القصص / ٥٦] ونصها: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٧٢] ونصها : لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ ، وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ .

(٣) [٣٠/ الروم/ ٥٣] ونصها : وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ، إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ .

(٤) [٤٢ / الشورى / ٥٢] ونصها : وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

(٥) [٢١ / الأنبياء / ٧٣] ونصها : وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ .

(الرابع) زدنا هدى استنجاحاً لما وعدت بقولك : « وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ »(١) . وقولك : « وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زِدْنَاهُمْ هُدًى »(٢) . (الخامس) قيل : علمنا العلم الحقيق فذلك سبب الخلاص، وهو المعبّر عنه بالنور في قوله : « يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ »(٣) (السادس) قيل : هو سؤال الجنة ، لقوله تعالى : « وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ »(٤) . وقال : « إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ »(٥) الآية . فهذه الأقاويل اختلفت باختلاف أنظارهم إلى أبعاض الهداية وجزئياتها ، والجميع يصح أن يكون مراداً بالآية ـ إذ لا تنافي بينها ـ

(١) [٦٤ / التغابن / ١١] ونصها : مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ، وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

(٢) [٤٧ / محمد / ١٧] ونصها : وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ .

(٣) [٢٤ / النور / ٣٥] ونصها : اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ ، يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ، وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

(٤) [٤٧ / محمد / ٤ و ٥] ونصهما : فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ، وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۞ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ .

(٥) [١٠ / يونس / ٩] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ .

وبالله التوفيق » اهـ كلام الراغب . وبه يعلم تحقيق معنى الهداية فى سائر مواقعها فى التنزيل الكريم ، وأن الوجوه المأثورة فى آيةٍ ما ـ إذا لم تتناف ـ صح إرادتها كلها ؛ ومثل هذا يسمى : اختلاف تنوّع لا اختلاف تضادّ .

كما أشار لذلك شيخ الإسلام تقيّ الدين بن تيمية رحمه الله تعالى فى مبحث له مهم ، نأثره عنه هنا ، لما فيه من الفوائد الجليلة . قال رحمه الله :

ينبغى أن يعلم أن الاختلاف الواقع من المفسرين وغيرهم على وجهين : أحدهما ليس فيه تضادّ وتناقض ، بل يمكن أن يكون كل منهما حقا ، وإنما هو اختلاف تنوّع أو اختلاف فى الصفات أو العبارات . وعامة الاختلاف الثابت عن مفسرى السلف من الصحابة والتابعين هو من هذا الباب . فإن الله سبحانه إذا ذكر فى القرآن اسماً مثل قوله « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » فكل من المفسرين يعبّر عن الصراط المستقيم بعبارة تدلّ بها على بعض صفاته ، وكل ذلك حق بمنزلة ما يُسمى الله ورسوله وكتابه بأسماء ، كل اسم منها يدل على صفة من صفاته . فيقول بعضهم : الصراط المستقيم كتاب الله أو اتباع كتاب الله . ويقول الآخر : الصراط المستقيم هو الإسلام أو دين الإسلام . ويقول الآخر : الصراط المستقيم هو السنّة والجماعة . ويقول الآخر : الصراط المستقيم طريق العبودية ، أو طريق الخوف والرضا والحب ، وامتثال المأمور ، واجتناب المحظور ؛ أو متابعة الكتاب والسنّة ؛ أو العمل بطاعة الله ، أو نحو هذه الأسماء والعبارات . ومعلوم أن المسمى هو واحد ، وإن تنوعت صفاته وتعددت أسماؤه وعباراته ؛ وكثير من التفسير والترجمة تكون من هذا الوجه . ومنه قسم آخر وهو أن يذكر المفسر والمترجم معنى اللفظ على سبيل التمثيل لا على سبيل الحدّ والحصر ـ مثل أن يقول قائل من العجم : ما معنى الخبز ؟ فيشار له إلى رغيف ـ وليس المقصود مجرد عينه ، وإنما الإشارة إلى تعيين هذا الشخص تمثيلاً . وهذا كما إذا سئلوا عن قوله « فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ